Journal of Alasmarya University
Volume 13, June 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث عشر، يونيو 2010

إلزام الأخلاف بأدب اختلاف الأسلاف

د. أحمد بو سجادة*

منذ زمن بعيد وأنا منشغل بحال أمة قادت البشرية في أبهى عصورها الذهبية، ثم حافت عليها الليالي، فوقعت على رأسها من قمة الهرم إلى الحضيض، تتخبط في الرغام، في ذيل قائمة الأمم المتخلفة.

منذ زمن بعيد وأنا أسلي النفس المتعبة الجزعة، بالظفر بجواب شاف لسؤال الدهر -دوما- أين المسلمون؟ لماذا الخلف بينهم؟ ما الذي صيرهم أبعاضا متنافرة، متنازعة، متباغضة؟ وهم الذين استحقوا -من قبل- امتداح ربهم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

اعتقدت في البداية أن سبب الإعاقة خارجي، بدءا بالاستعمار، وانتهاء بالغزو الفكري؛ فأنفقت شطرا عزيزا من العمر أدرس هذا المعوق الخارجي كتبت عنه - بعد أن خبرته- عشرات المقالات، ونشرت وألقيت عشرات المحاضرات والبحوث في مناسبات شتى. وبعد جهد مضن تحت أكداس الإيديولوحيا، ومطارح الأفكار، والمذاهب، والعقائد؛ تبين لي أن العامل الخارجي ما هو إلا محصلة مترتبة على العامل الداخلي، بالضرورة المنطقية، والنواميس الطبيعية. فالشجرة المجوفة التي نخرها السوس والدود والنمل من الداخل، حين تتهاوى؛ نكون مجانين إن نسبنا هويها إلى نسائم الربيع، أو رياح الخريف.

وهذه هي السنة السوسيولوجية والقانون العمراني الذي أشار إليه القرآن الكريم

* الجامعة الأسمرية.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165] ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46] وهذا ما أسماه الكاتب والمفكر مالك بن نبي (القابلية للاستعمار) إنه الاختلاف والتنازع الداخلي، الذي يفضي إلى الهزيمة، ويستدعي الاستعمار. فما ضاعت الأندلس إلا بعد أن دب الخلاف المحموم، والتفرق المذموم بين ملوك الطوائف. وما وقعت بلاد المسلمين تحت وطأة الاستعمار الغربي إلا بعد أن أحال النخر الداخلي الدولة العثمانية إلى (رجل مريض) ينبغي أن تقسم تركته بين ورثة غير شرعيين. وما سقطت القدس وبلاد الشام إلا بعد أن اشتد الخلاف بين حكام المناطق والأقاليم. وما استولى القياصرة والبلاشفة على أرض المسلمين في بلاد التركستان، والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي-سابقا- إلا بعد أن احتد الخلاف بين الإخوة الأربعة: حكام قازان. وبهذا الخلاف انطوى مجد الخلافة الأموية، وأفل نجم الخلافة العباسية. ومن بعدهما دولة المرابطين، والموحدين، والدولة الأيوبية، والسلجوقية. كل هذه الهزائم الشائنة ألحقناها بأنفسنا، بسبب خلافات تافهة -في الغالب- لا تجدد دينا ولا تنهض بدنيا.

وانهزامنا اليوم في المعركة الحضارية هو بسبب هذا الخلاف. لقد امتدت أذرع الاختلاف في مجتمعاتنا الإسلامية-طولا وعرضا- حتى فرقت بين الوالد وولده.

والأنكى والأشد؛ أن يمتد هذا السعار إلى العلماء-عموما- والدعاة خصوصا. حيث ظهرت التنظيمات والتجمعات المتنازعة المتخالفة، فرزئت الدعوة بصنف من الدخلاء على العلم والفقه، لا يعرفون إلا رأيا واحدا ولا يعرفون سواه، ثم يقولون: هذا هو الدين ولا دين سواه، ونكئت الساحة الإسلامية بعبارات: التفسيق، والترذيل، والتضليل، والتبديع.

كل هذه الغثائية، وهذا الانقسام، والتشرذم والتشظي؛ يلعب فيه الاختلاف دور الشرارة في اللهب. وحيال ماض انطوى، ومجد انثوى، وواقع انجلى؛ نحاول أن نجلي الإشكالية التالية:

هل ما حدث ويحدث للأمة من تمزق هو بسبب الخلاف؟ كيف؟ كيف يستقيم ذلك، وقد اختلف ملائكة الرحمن ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ﴾ [ص: 69] وفي الصحيح أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب اختلفت حول الذي قتل مائة نفس. وقد اختلف الأنبياء: فاختلف داود وسليمان-عليهما السلام- حول الغنم إذا نفشت في زرع القوم، واختلف موسى والخضر -عليهما السلام- حول نقاط ثلاث، واختلف موسى

وهارون -عليهما السلام- وتحاج موسى وآدم -عليهما السلام-. واختلف أصحاب رسول الله ﷺ في حياته ولم ينكر عليهم ذلك، بل أحيانا يقر هذا وذاك على الصواب، مثل إقراره لصلاة الفريقين في بني قريظة، وإقراره لصلاة الصحابيين اللذين كانا على سفر، حيث أعاد أحدهما في الوقت ولم يعد الآخر، كما اختلفوا بعد مماته حول قضايا كثيرة، وكان اختلافهم حول الفروع، والظنيات، كما سنبينه بشيء من التفصيل في مناسبته -إن شاء الله-.

أما اختلاف التابعين والعلماء والفقهاء؛ فلا يمكن حصره، إذ يتسع شرحه وتفصيله لعشرات المجلدات. ورغم ذلك فقد استحقت هذه الأمة امتداح الله سبحانه وتعالى، إذ وصفها بصفتين محمودتين كريمتين: الخيرية والرحمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]. بل نجد أن العليم الحكيم قد بين أن الاختلاف سنة ماضية في خلقه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118-119].

بل إن الرسول ﷺ اعتبر اختلاف أمته رحمة. ومن هذا المفهوم وذاك استقى عمر بن عبد العزيز قولته المشهورة: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا، كان في الأمر سعة»[1].

أين المشكلة إذن؟ المشكلة ليست في الاختلاف في حد ذاته، وإنما المشكلة في الفهوم القاصرة للاختلاف، وفي ما يترتب عليه. إذ حولته من الرحمة إلى النقمة، ومن التنوع إلى التضاد، ومن الائتلاف إلى التمزق، ومن الانفتاح إلى الانكفاء، ومن الإعذار إلى الإنكار، ومن التعدد إلى التعصب، ومن القوة إلى الضعف، ومن السنة إلى البدعة، ومن البناء إلى الهدم، ومن الجدال بالتي هي أحسن إلى الجدال بالتي هي أقبح، ومن رحاب الحلال إلى دروب الحرام.

ولينتظم الاختلاف في مساره الصحيح، ويكون رحمة للأمة، ومظهرا للتنوع والانفتاح، وغاية للقوة ووحدة الصف؛ لابد من مراعاة الضوابط الآتية بعناية فائقة، وإدراك عميق، في كل ما يعرض من صور الاختلاف:

أولا: ألا يتعدى الخلاف دائرة الفروع إلى الأصول.

1- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، دار الكتب الإسلامية، ط 2، 1982، ص: 353

ثانيا: لا اختلاف ولا اجتهاد مع النص القطعي، وما أجمعت عليه الأمة، والمعلوم من الدين بالضرورة.
ثالثا: للاختلاف فقه خاص، وآداب وأخلاق مستوحاة من الكتاب والسنة، وسيرة السلف الصالح تجب مراعاتها بعناية فائقة. وأعتقد جازما أنه لن يعود إلى الأمة سالف عزها، وسابق مجدها، إلا إذا أحيت هذه الآداب الثاوية، واتخذتها حلية -قولا وفعلا، ائتلافا واختلافا-.

وأنا على يقين من أن هذه الآداب هي الحياة وهي الممات. هي الحياة إن تمسكنا بها، وهي الممات إن نحن أهملناها، وجئنا بأضدادها ... فما هي هذه الآداب؟ وكيف تجسدت في أخلاقيات سلفنا الصالح؟ وكيف بنوا بها مجدا حضاريا يشبه الأساطير؟ وكيف بنوا بها أعظم إمبراطورية في تاريخ البشرية؟ وكيف قادوا بها خير أمة أخرجت للناس؟ هذا ما سوف يتضح لنا -بمشيئة الله تعالى- من خلال الحديث عن أدب اختلاف الصحابة، والتابعين، وأئمة المذاهب، والعلماء -عموما-.

تعريف الاختلاف

تعريفه لغة: جاء في مقاييس اللغة في كلمة خلف: الخاء واللام والفاء: أصول ثلاثة: أحدها: أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه. ثانيها: خلاف قدام. ثالثها: التغير[2]. ومثال الأول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [الفرقان: 62] أي يجيء بعده ويقوم مقامه، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 76] أي بعدك[3]. ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ [البقرة: 255] أي وراءهم. ومثال الثالث: قوله ﷺ: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[4] أي لتغير رائحة فمه.

وفي لسان العرب: الخلاف: المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافاً، وهو هنا ضد الاتفاق، وفي المثل: إنما أنت خلاف الضبع الراكب، أي تخالف خلاف الضبع؛ لأنه إذا

2- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط: 1994/1، باب: خلف.

3- المحيط في اللغة، الصاحب إسماعيل بن عباد، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ط: 1994/1، باب: خلف.

4- أخرجه البخاري: كتاب الصوم: باب فضل الصوم. حديث رقم: 1894.

رأت الراكب هربت منه. وخالفه إلى الشيء أي عصاه وقصده، بعد ما نهاه عنه، وقال لكل شيئين اختلفا هما: خلفان وخلفتان[5]. وفي مختار الصحاح: الخلاف: المخالفة، لقوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 81] أي مخالفة رسول الله ﷺ.

ومن خلال الاطلاع والمقاربة والمقارنة بين مختلف المعاجم يتضح لنا: أن الاختلاف والخلاف يفيدان عدة معان، منها: مجيء الشيء بعد الشيء، وبمعنى خلف وهو ضد قدام، والتغير، والمضادة، والتنوع، وعدم الاتفاق، وعدم الاستواء، وعدم الموافقة بين شيئين.

وعليه نرتب نتيجة هامة تجمع بين كل هذه المعاني، ومفادها أن الاختلاف هو مطلق المغايرة، وعدم الموافقة.

بين الاختلاف والخلاف

المتعين الذي يمتنه الدليل أن لا فرق بين كلمتي الاختلاف والخلاف، وهما بمعنى واحد، وكل منهما ينوب عن الآخر ويقوم مقامه، ودليل ذلك:

أولاً: المعاجم: حيث تتفق على أن الخلاف والاختلاف بمعنى واحد، ولذلك لا يتصور أن يسقط فطاحلة اللغة –على مدى القرون– فرقاً بين الكلمتين ويكتشفه من هو دونهم.

ثانياً: كتب التراث: لا أعتقد أن التاريخ عرف ما عرفه المسلمون من دقة الضبط في علم العبارات والألفاظ، إذ إن النقطة أو الحرف أو الحركة قد تقلب المعنى رأساً على عقب، كما في قوله تعالى: ﴿ يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ [فاطر: 28] فبمجرد ضم الهاء ينقلب المعنى –رأسا على عقب– وبسبب الباء في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6]، وبسبب قراءة النصب والكسر في قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة: 6] يتغير الحكم الشرعي وتتفرع المذاهب ... فإذا كانت الحركة والنقطة والحرف بهذه القيمة العلمية الدقيقة؛ فمن باب أولى أن تحظى الكلمة بعناية أدق، ومنها كلمة الاختلاف والخلاف، فلو كان هناك فرق معتبر لأشاروا إليه وناقشوه.

إذ ليس من المعقول أن يستعمل علماء الأصول والحديث والفقه، والجرح

5– لسان العرب، ابن منظور، مادة: خلف

والتعديل هاتين الكلمتين في غير موضعهما وإلا فإنه يلزمنا منطقياً إعادة غربلة وصياغة كتب التراث جميعاً، وهو محال.

غير أن هناك من يرى فرقاً بين الكلمتين[6] وموجز هذا الرأي يتلخص في الآتي:

1. إن الخلاف يعني التضاد والاختلاف يعني المغايرة.
2. إن الاختلاف يقوم على الدليل والخلاف لا يقوم على الدليل.
3. الخلاف يعني التنازع والخصومة، والاختلاف يعني التنوع.
4. الخلاف من آثار البدعة، والاختلاف من آثار الرحمة.
5. والاختلاف يكون فيما يجوز، والخلاف فيما لا يجوز الاختلاف فيه.
6. الخلاف يكون في حالة العصيان عن قصد، والاختلاف يكون بسبب اختلاف النظر مع خلوص القصد.

وكل هذا مجرد اجتهاد لا يترجح بدليل، ولا تقوم عليه شواهد، ولا يتمحض بالبحث الدقيق.

تعريف الاختلاف اصطلاحاً

وردت جملة من التعريفات للاختلاف، وسنختار منها الآتي:

- عرفه الجرجاني: بأنه منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل[7].
- وعرفه الراغب الأصفهاني بقوله: «الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله»[8].
- وقال الدكتور طه جابر العلواني: الخلاف والاختلاف يراد به مطلق المغايرة في القول، أو الرأي، أو الحالة، أو الهيئة، أو الموقف[9].

6- لمزيد من التفصيل: ينظر: حديث اختلاف أمتي رحمة: رواية ودراية، د. سعود بن عبد الله الفينسان، مكتبة الرشيد ، الرياض، ط: 1/1999، ص: 39-40. وينظر مراعاة الخلاف في المذهب المالكي، د. محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ، دار البحوث الإسلامية وإحياء التراث، ط: 1، 2002، ص: 86-87.

7- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط: 1/1990، مادة: خلف.

8- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة: خلف

9- أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر فياض العلواني، دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة ، الجزائر، 1986، ص: 24.

أسباب الاختلاف بين الناس

لا شك أن الاختلاف بمعناه العام قديم قدم الإنسانية ذاتها، فقد أخبرنا القرآن الكريم عن اختلاف ابني آدم: قابيل وهابيل، واختلاف الأنبياء فيما بينهم، وفيما بينهم وبين أقوامهم. وتعود أسباب اختلاف الناس باختصار إلى ما يأتي:

1. اختلاف وتفاوت المدارك.
2. اختلاف الرغبات والشهوات.
3. اختلاف الاتجاهات والمذاهب.
4. التعصب للمذهب، والقبيلة، والبلد، والجماعة ...
5. التعصب للدين، والنحل، والملل.
6. التنوع الثقافي، والإيديولوجي.
7. اختلاف الألسنة والألوان.
8. تقليد السابقين ومحاكاتهم.
9. الانتماء السياسي بمعناه العام.
10. الانتماء القومي.
11. الشعوبية، والجهوية.
12. الانتماء الجغرافي.
13. التنافس الاقتصادي وجمع الثروة.
14. حب الرياسة والسلطان وحب الدنيا.
15. الأمراض النفسية كالحسد والغيرة والأنانية.
16. اتباع الهوى، الذي يعمي ويصم.
17. التحزب.
18. الكبر، والإعجاب بالنفس.
19. الجدل، والمناظرة.
20. الانفجار المعرفي الهائل في العصر الحديث.
21. الصراع الحضاري.

هذه هي الأسباب العامة التي ينشأ بسببها الاختلاف، كما أن هناك أسباباً أخرى قد تتفرع عن هذه الأصول العامة للاختلاف.

لقد اقتضت مشيئة الله في الخلق أن يكونوا مختلفين. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118-119]. قال البعض: للاختلاف خلقهم، وقال البعض الآخر: للرحمة خلقهم، وقال فريق آخر: للاختلاف والرحمة معاً.

كما اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يكون الاختلاف ناموساً اجتماعياً وقانوناً عمرانياً تقوم عليه مصالح العباد، وتحفظ به الأرض من الفساد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى﴾ [البقرة: 251] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40] إنه قانون التدافع الحضاري، إذ لولا أهل الحق الذين يصلحون ويمنعون شرور أهل الباطل، لاختل التوازن، وعم الخراب، وفسدت الأرض!!.

أسباب الاختلاف بين المسلمين[10]

لا شك أن الأسباب العامة المشار إليها آنفاً قد يكون لبعضها مدخل يضيق أو يتسع في أسباب الاختلاف بين المسلمين، وخاصة في الجانب السلبي للاختلاف وهو الاختلاف المذموم، غير أن هناك أسباباً خاصة للاختلاف بين المسلمين.

10- بما أن الحديث عن أسباب الاختلاف بين المسلمين في هذا البحث عارض، وليس مقصوداً لذاته؛ فيمكن تذكير القارئ بأهم الكتب التي تكلمت عن أسباب الاختلاف، ومنها:

- كتاب الإنصاف في التنبيه على أسباب الاختلاف، لأبي عبد الله بن محمد السيد البطليوسي.
- وكتاب: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، وكتاب حجة الله البالغة، لولي الله الدهلوي.
- وكتاب: أسباب اختلاف الفقهاء، لعلي الخفيف.
- وكتاب: أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، د. مصطفى الخن.
- وكتاب: ضوابط الاختلاف في ميزان السنة، د. عبد الله شعبان.
- وكتاب: أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر فياض العلواني.
- وكتاب: أثر الأدلة المختلف فيها، د. مصطفى البغا.
- وكتاب: دراسات في الاختلافات الفقهية، لمحمد أبي الفتح البيانوني.
- وكتاب: منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب، د. عبد السميع أحمد إمام.
- وكتاب: أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية، د. مصطفى إبراهيم الزلمي.

إن مما يجزم بثبوته؛ اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاته ﷺ. لقد اختلفوا في دفنه ﷺ، واختلفوا في من يخلفه، واختلفوا حول قتال مانعي الزكاة، واختلفوا حول أرض فدك، وأرض السواد، وفي جمع القرآن، واختلفوا في مقتل عثمان ﷺ، كما اختلفوا حول قضايا تشريعية كثيرة، واختلف التابعون، ومن جاء بعدهم من العلماء وأئمة المذاهب. ولا تزال هذه السنة ماضية فينا وفي من يأتي بعدنا.

ولقد كان وراء هذا الاختلاف وذاك أسباب كثيرة، أشار إليها العلماء. وحسب مقتضى الحال سأشير إلى أهم هذه الأسباب على النحو الآتي:

أولاً: الأسباب المتعلقة بفهم القرآن الكريم

وتشتمل على الاختلاف بسبب:

1. وجود النصوص الظنية.
2. اختلاف القراءات[11].
3. الاشتراك في دلالة اللفظ[12].
4. التعارض بين النصوص[13].
5. وجود الحقيقة والمجاز[14].
6. اختلاف التأويل[15].

ثانياً: الأسباب المتعلقة بالسنة

وتشمل:

11- ينظر أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، د. مصطفى الخن، مؤسسة الرسالة، ط: 2003/2، ص: 40، 41.

12- ينظر: أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، د. مصطفى الخن، ض: 81، وينظر: منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب، د. عبد السميع أحمد إمام، المدار الإسلامي، ط: 2001/1، ص: 39- 48.

13- منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب، د. عبد السميع أحمد إمام، ص: 60- 72، وينظر أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، دار الفكر العربي، ط: 1996/2، ص: 129 - 142، وينظر أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية، د. مصطفى إبراهيم الزلمي.

14- أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، ص: 126- 129.

15- المرجع نفسه، ص: 46.

1. الأسباب المتعلقة بفهم القرآن عدا القراءات.
2. عدم بلوغ السنة[16].
3. الشك في ثبوت الحديث[17].
4. اختلاف الضبط[18].
5. الاختلاف في علة الحكم[19].
6. الاختلاف حول خبر الواحد إذا عارض الحديث المشهور، وخالف الأصول العامة والقياس، وإذا لم يشتهر فيما تعم به البلوى[20].
7. عمل الصحابي والراوي بخلاف ما روى[21].
8. العمل بالحديث الضعيف والمرسل[22].

ثالثاً: الاختلاف حول المصادر التبعية

كالاختلاف حول الإجماع، والقياس، والاستحسان، والاستصحاب، والمصالح المرسلة، وحجية قول الصحابي، وعمل أهل المدينة، ومفهوم المخالفة، والعرف ...[23] والكلام حولها يطول.

16- ينظر: أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، د. مصطفى الخن، ص: 42، وينظر: صحيح مسلم: (331)، (1109)، وأسباب اختلاف الفقهاء علي الخفيف: 57.

17- المرجع نفسه، ص: 55، 56، وينظر الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ولي الله الدهلوي، تحقيق: محمد صبحي بن حسن، وعامر حسين، دار ابن حزم، ط: 1999/1، ص: 38، وينظر أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، ص: 29- 44.

18- المرجع نفسه، ص: 46، 47 وصحيح البخاري (1289).

19- أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء، د. مصطفى الخن، ص: 54، 55، وينظر الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ولي الله الدهلوي.

20- أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، ص: 70- 80.

21- المرجع نفسه، ص: 80- 82.

22- المرجع نفسه، ص: 90- 100، وينظر: حديث اختلاف أمتي رحمة: رواية ودراية، د. سعود بن عبد الله الفنيسان، مكتبة الرشد ، الرياض، ط: 1999/1، ص: 57- 72.

23- لمزيد من التفصيل ينظر، أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية، د. مصطفى إبراهيم الزلمي، ص: 395-491، وينظر: أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، ص: 194-242.

رابعاً: أسباب متنوعة

إذ من أسباب الاختلاف أيضاً:

1. إعمال الرأي.
2. عدم تيسر الإجماع.
3. الاختلاف بتغير الزمان والأحوال.

ويضيف الشيخ محمد أبو زهرة أسباباً أخرى منها:

4. العصبية العربية (ويقصد بني أمية).
5. دخول كثير من أهل الديانات في الإسلام.
6. ترجمة الفلسفة اليونانية.
7. اتباع التلاميذ لشيوخهم.
8. القضاء الذي لزم عنه التقليد في الفتوى.
9. وجود ثروة فقهية أنتجتها القرون الثلاثة الأولي.
10. التعصب المذهبي الذي ساد بعد القرون الثلاثة الأولى[24].
11. ظهور الجدل والمناظرة على المستويين: الداخلي والخارجي[25].
12. التنافس على الخلافة.
13. ظهور الفرق الإسلامية[26].
14. ضعف الخلافة العباسية في عهودها المتأخرة، وظهور الانقسامات السياسية.

أدب اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم

إن الصحابة -رضوان الله عليهم- اجتهدوا واختلفوا سواء كان ذلك في عهده ﷺ أم بعد وفاته، ولمقتضى الحال؛ فإننا لا نستطيع الخوض في تبيان أسباب اختلافهم، لأن ما يعنينا هنا هو أدب الاختلاف. وخلاصة ما نخرج به حول اختلافهم -رضوان الله عليهم- جملة من الآداب، نوجزها على النحو الآتي:

24- تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996 من ص: 11: 16 ومن ص: 302- 304.

25- تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 2003، ص: 64- 100.

26- من أحسن ما كتب في هذا الموضوع؛ كتاب (تاريخ المذاهب الإسلامية) لمحمد أبي زهرة.

أولاً: إن اختلافهم كان من قبيل الاختلاف المحمود، الذي أقرهم عليه الرسول ﷺ إذ كانوا يتحاشون الاختلاف المذموم الذي حذر منه الرسول ﷺ حيث قال: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[27] وهو الذي يؤدي إلى التنازع ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: 46].

ثانياً: تورعهم عن الفتوى والرأي: فلقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتورعون عن الفتوى وإبداء الرأي مخافة الوقوع فيما يخالف الشرع، وحذر الوقوع في الاختلاف المذموم[28]، فإذا عرضت على أحدهم قضية يود لو أن غيره كفاه، وكان بعضهم يحيل على بعض. يروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ، فما كان منهم محدث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث ولا مفتٍ إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا[29] يقول ابن القيم: «وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود كل واحد منهم أن يكفه إياها غيره، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة، أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى»[30].

رغم ما كان عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه من العلم، وعلو المنزلة، ورغم ما كان عليه من حزم وعزم حال الشدة، وركوب المكاره إلا أنه كان في الفتاوى وإصدار الحكم متهيباً متورعاً. روى أيوب عن أبي مليكة قال: سئل أبو بكر الصديق عن آية، فقال: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني؟ وأين أذهب، وكيف أصنع إذا أنا قلت في كتاب الله بغير ما أراد الله بها؟[31]. وقال أيضاً في مناسبة أخرى روتها عنه عائشة -رضي الله عنها- قال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت ما لا أعلم.»[32]، وفي رواية ابن عبد

27- رواه أبو داود، ب، تسوية الصفوف، ح: 664.

28- وعلى رأس أولئك، عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت رضي الله عنهما.

29- إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، 1، ج: 1، ص: 28، وينظر: أخلاق العلماء، أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، مكتبة الثقافة الدينية، 1996 (ب ط) ص: 63 مع اختلاف طفيف في العبارة.

30- المرجع نفسه، ص: 28.

31- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1999 (ب ط) ج: 1، ص: 449، وفي ص: 43 «إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم».

32- المرجع نفسه.

البر « إذا قلت في كتاب الله بغير علم »[33].

إن الصديق ﷺ لما لم يجد مندوحة، ولم يجد بداً في القول فيما لم يجد له أصلاً في الكتاب والسنة قال: « هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني، وأستغفر الله »[34] إنه التورع والأدب مع الله. ينسب الصواب إلى الله، والخطأ إلى نفسه، ثم يستغفر!!.

وعلى نهج الصديق يقتفي اللاحقون الأثر، عملاً بعمل، وقولاً بقول حتى لتكاد العبارات تتطابق تمام الانطباق، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: « أي أرض تقلني أو سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم »[35].

سئل ابن عمر –رضي الله عنهما– عن مسألة، فقال للسائل: لا أدري قال السائل أنت لا تدري؟ قال: نعم اذهب إلى العلماء بالمدينة فاسألهم فلما أدبر السائل قبل يديه وقال: نعمَّا قال أبو عبد الرحمن سئل عما لا يدري فقال لا أدري[36]. وعن عقبة بن مسلم قال: « صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً فكثيراً ما كان يسأل فيقول: لا أدري ثم يلتفت إليَّ فيقول: أتدري ماذا يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً لهم إلى جهنم »[37].

ولعل الحادثة التي سنوردها تبين لنا مدى التحوط الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في إبداء الرأي، كما تبين لنا أنهم ما كانوا يلجأون إلى الرأي والاجتهاد إلا حينما لا يجدون مندوحة عنه. كل ذلك تجنباً للخلاف المذموم، والحكم على الأشياء بغير دليل واضح من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

سئل ابن عباس –رضي الله عنهما– عن قضية، فقال: « لا أسأل وعبد الله بن عمر موجود، فسأل الرجل عبد الله بن عمر، فقال لا أسأل وعبد الله بن عمرو بن العاص موجود، ولما سأله قال له: اسأل عبد الله بن الزبير، فلما سأله قال له: اسأل ابن عباس،

33– جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، دار الكتب الإسلامية، ط: 2/1982 ص: 353.

34– المرجع نفسه: 352، وينظر إعلام الموقعين، ج: 1، ص: 44، وفي رواية أخرى « فمني والشيطان ».

35– جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 535.

36– إعلام الموقعين، ابن عبد البر، ج1، ص: 450.

37– صحيح جامع بيان العلم، لابن عبد البر، أعده واختصره وهذبه، أبو الأشبال الزهيري، مكتبة ابن تيمية، ط1/1996، ص: 312.

فلما سأله قال عد إلي غداً!! سأل محمد بن إياس بن بكير عبدَ الله بن الزبير، وعاصم بن عمر عن زوج بدوي طلق زوجته ثلاثاً فقال له عبد الله بن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة ... ثم ائتنا فأخبرنا، فذهبت فسألتهما فقال ابن عباس: لأبي هريرة أفته يا أبا هريرة فقد جاءتك ... فقال أبو هريرة: الواحدة تبينها والثلاث تحرمها، حتى تنكح زوجاً غيره»[38].

لا أدري ماذا يقول متفيهقو اليوم أمام هذه النماذج الشامخة، التي أخذت تزكيتها من الرسول ﷺ واستحقت امتداح الله سبحانه وتعالى لها!!.

ثالثاً: عدم الجزم بأن رأي أحدهم هو حكم الله: مع أخذهم بالرأي والعمل به، فإنهم بدءاً كانوا يرجعون إلى الحق متى تبين وإن استقروا على رأيهم، فإنه لا أحد من هؤلاء كان يدعي أن رأيه هو حكم الله وشرعه، ولنا على ذلك أمثلة ناصعة البياض يرتبط فيها العلم بالتقى والورع، بل أحياناً بالرهبة الشديدة، ومن أمثلة ذلك:

1. ما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ إذا اجتهد وترجح لديه حكم «قال: هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني وأستغفر الله»[39].
2. كتب كاتب لعمر: ﷺ «هذا ما رأى الله ورأى عمر، فقال له: بئسما قلت: هذا ما رأى عمر فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ، فمن عمر، ثم قال: السنة ما سنه الله ورسوله لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة»[40].
3. وروي عن عمر ﷺ أيضاً «لا يقولن أحد قضيت بما أراني الله، فإن الله تعالى لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ، وأما أحدنا فرأيه يكون ظناً لا علماً»[41].
4. ما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه حكم للتي تزوجها رجل، ولم يفرض لها صداقاً، ومات قبل أن يدخل بها بأن لها صداق المثل «لا وكس ولا شطط»[42] (أي

38- إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، ج: 1، ص: 28.

39- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 353.

40- إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، ج: 1، ص: 44، وانظر تاريخ التشريع الإسلامي، محمد الخضري بك، ص: 76.

41- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مج: 5، ص: 395.

42- الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، ولي الله الدهلوي، ص: وانظر جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 364.

لا نقص ولا زيادة) ولما قضى[43] بذلك قال: فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان. وعنه أيضاً أنه قال: عسى رجل أن يقول: إن الله أمر بكذا ونهى عن كذا فيقول له الله عز وجل كذبت، ويقول: إن الله حرم كذا وأحل كذا، فيقول له الله عز وجل: كذبت.

رابعاً: عدم التعصب للرأي واحترام رأي الآخر: فما كان الواحد منهم يتعصب لرأيه، ويحاول أن يجعله مذهباً للآخرين، أو يخاصم أو يعادي من يخالفه، ولا يحمل الآخرين على رأيه ولو كان ذا سلطان. فعن عمر ﷺ أنه لقي رجلاً، فقال: «ما صنعت؟ قال: قضى علي وزيد بكذا قال: لو كنت أردُّك إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لفعلت، ولكني أردك إلى رأيي، والرأي مشترك ولست أدري أي الرأيين أحق عند الله»[44].

وسأل رجل علياً ﷺ عن مسألة، فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال علي: أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذي علم عليم[45]، واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري ﷺ فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بينكم، الحق ما قال[46].

واختلف زيد بن ثابت وابن عباس، واحتد بينهما النقاش، وبعد أن قلب زيد المسألة وجد أن الحق مع ابن عباس، فلقيه يوماً وهو -يضحك- وقال له: القول ما قلت!![47].

خامساً: التحلي بروح الأخوة والتسامح: ما أشرنا إليه من نقاط الخلاف بين الصحابة هو قليل من كثير، لا يمكن الإحاطة به كلياً بهذه المناسبة أو تلك، وإن كان هذا الخلاف يعتبر قليلاً إذا ما قيس بما بعده من أدوار التشريع الإسلامي. والذي يعنينا هنا هو ذلك الجو الأخوي الحميمي السامق، الذي كان يجري فيه النقاش والمناظرة، لقد كان الله غايتهم ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: 14] فاختلافهم واتفاقهم كله في سبيل الله، ما دامت

43- أخرجه أبو داود (2114).

44- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 364.

45- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان (ب. ط) 2001، ج: ص: 47.

46- المرجع نفسه.

47- منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، د. عثمان علي حسن، دار اشبيليا للنشر والتوزيع، ط: 1999/1، ج: 2، ص: 749.

الجهود والقلوب مرتبطة بالمقصد الكريم « كانت أخوة الإسلام بينهم أصلاً من أصول الإسلام الهامة التي لا قيام للإسلام دونها، وهي فوق الخلاف أو الوفاق في المسائل الاجتهادية ... كانت نظرتهم إلى استدراكات بعضهم على بعض أنها معونة يقدمها المستدرك منهم لأخيه وليست عيباً أو نقداً »(48).

لقد اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع، كميراث الجد مع الإخوة، والطلاق بالثلاث في كلمة واحدة، ونفقة المبتوتة، وموجبات الغسل، وفي نواقض الوضوء وغيرها « فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة، ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كان كل منهم يجتهد في نصرة قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة، من غير أن يضمر بعضهم لبعض على بعض حقداً، ولا ينطوي له على ذم، بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له، ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه »(49).

وهذه بعض المواقف الحية المليئة بالمحبة والأخوة رغم الخلاف الذي كان بينهم: اختلف ابن عباس مع زيد بن ثابت حول ميراث الجد مع الإخوة، فكان ابن عباس على رأي أبي بكر الصديق وفريق من الصحابة، وزيد بن ثابت على رأي علي وابن مسعود، واحتد النقاش بينهما. وذات يوم رأى ابن عباس زيد بن ثابت يركب دابته، فأخذ بركابه يقود به، فقال زيد: تنح يا ابن عمِّ رسول الله، فيقول ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال زيد أرني يدك، فأخرج ابن عباس يده فقبلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا!!. وحينما مات زيد قال ابن عباس: « هكذا يذهب العلم » وفي رواية البيهقي « هكذا ذهاب العلم لقد دفن اليوم علم كثير »(50).

يذكر أن المسائل التي خالف فيها ابن مسعود عمر بن الخطاب بلغت مائة، ورغم ذلك فإن هذا الاختلاف لم يؤثر في وشائج الأخوة بينهما، ولم تنقص به محبة، ولم يتكدر به صفو مودة. رأى عمر يوماً ابن مسعود مقبلاً، فقال: « كنيف ملئ علماً »، وتذكر ابن مسعود يوماً عمر فبكى حتى بلل الحصى بدموعه وقال: « إن عمر كان للإسلام حصناً حصيناً، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه فلما أصيب عمر انثلم الحصن »(51).

48- أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر فياض العلواني، ص: 73.

49- الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، دار العاصمة، ط: 2، 1412هـ، مج: 2، ص: 517 - 518.

50- ينظر إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، ج: 1، ص: 18.

51- أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 65، 66.

لقد ردَّ ابن عباس وهو أصغر الصحابة سناً على أمير المؤمنين عمر في كثير من المسائل[52]، ولم يمنع ذلك عمر من عادته مع ابن عباس، إذ كان يدعوه لمعضلات المسائل مع البدريين وشيوخ المهاجرين والأنصار.

رغم ما قيل عن تأخر علي في مبايعته لأبي بكر رضي الله عنهما ورغم ما ورد من خلاف حول المدة التي تأخر فيها فإن مواقفه مع الصديق، تصرفنا إلى الأهم، وهو قناعته بأحقية وجدارة أبي بكر الصديق بالخلافة[53]، وكنَّ المحبة الصادقة له. لقد أراد أبو بكر أن يخرج بنفسه لقتال مانعي الزكاة، فجاءه علي فأمسك بزمام فرسه وقال له: «أقول لك يا خليفة رسول الله ما قال رسول الله يوم أحد: لُمَّ سيفك وأمتعنا بنفسك، فوالله لئن نكب المسلمون بك لن تقوم لهم قائمة من بعدك!»[54] فعاد أبو بكر وكلف باللواء غيره!!

لقد كان القصد من تقديم هذه النماذج التأسي والاقتداء بآداب الاختلاف، خاصة في هذا الزمن الذي كثر فيه المتفيهقون، الذين لم يعرفوا عن اختلاف الصحابة شيئاً، ولم يقفوا على آدابهم في الاختلاف، ولم يميزوا بين الاختلاف المحمود والمذموم، والجدل المحمود والجدل المذموم، والرأي المحمود والمذموم، واختلاف الفروع واختلاف الأصول فظنوا -لقلة علمهم- بهذا وذاك أن كل مخالف خصم، ومبطل ومبتدع، وضال، وفاسق ... وهلم جرّا.

كان قبيصة بن عقبة يقول: «لا يفلح من لا يعرف اختلاف الناس»[55]، وقال قتادة: «من لم يعرف الاختلاف لم يشم رائحة الفقه بأنفه»[56]، وقال يحي بن سلام «لا ينبغي لمن لا يعرف الاختلاف أن يفتي، لا يجوز لمن لا يعلم الأقاويل أن يقول هذا أحب إلي»[57]، وكان سعيد بن أبي عروبة يقول: «من لم يسمع الاختلاف فلا تعده

52- المتفيهقون، د. محمد حسن هيتو، دار البشائر، ط: 1/1994، ص: 112.
53- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام، ط: 15/2005، ص: 255.
54- وهذه مشكلاتنا، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق ، سوريا ط: 4/1995، ص: 191.
55- صحيح جامع بيان العلم، ابن عبد البر، أعده واختصره وهذبه أبو الأشبال الزهري، ص: 302.
56- المرجع نفسه: ص: 300.
57- المرجع نفسه: ص: 301.

عالماً »(58).

لقد كان اختلاف السلف الصالح رحمة وتنوعاً، وأمضت الأمة أمسها في وئام وتعاضد، وكانت على ذلك حتى ظهر ناس من الدخلاء على العلم والفقه لا يعرفون إلا رأياً واحداً ووجهة نظر واحدة صائبة أو خاطئة، ثم يقولون هذا هو الدين ولا دين سواه!!.

أدب الحوار والاختلاف من خلال أدبيات الفقهاء والعلماء

عرفنا فيما سبق أدب اختلاف الصحابة ﷺ، وتبين لنا كيف أن اختلافهم كان من قبيل الاختلاف المحمود الذي دعت إليه حاجة التشريع، والمصالح العامة للمسلمين، وتبين لنا كيف كان الواحد منهم يتحاشى الفتوى والرأي، حتى إذا لم يعد لأحدهم مندوحة أفتى ولسان حاله يقول: إن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمن نفسي والشيطان، ورأيي لا يلزم أحداً، كما تبين لنا كيف أن أحدهم كان يعود إلى الحق إذا تبين، بعد أن يرى أن دليل الآخر أرجح وأقوى، أو تبلغه سنة كان يجهلها، أو أخطأ فهمها، أو وهم، في سماعها، وهذا وذاك كان يحدث في جو حميمي أخوي، وفي هذه الأرومة الكريمة يشترك جيل التابعين الذين اتبعوهم بإحسان، فكانوا خير خلف لخير سلف، أخذوا عن أساتذتهم العلم والأدب. لقد حفظوا عنهم القرآن قراءة وتأويلاً، ودُرَر السنة دراية ورواية.

وكما يقول المثل العربي: « هذا الشبل من ذاك الأسد » بمعنى أنه يحمل صفاته الوراثية -شكلاً ومضموناً- فكما اختلف الصحابة وزانوا اختلافهم بالأدب والورع، فكذلك فعل التابعون وتلامذتهم، إذ تكاد أسباب الخلاف تكون هي نفسها مع زيادة طفيفة لدى الفقهاء إلى درجة أن الإمام ولي الله الدهلوي لا يكاد يفرق بين اختلاف الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب. يقول: « وقد كان في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ البسملة، ومنهم من لا يقرؤها، ومنهم من يجهر بها ومنهم من لا يجهر بها، وكان منهم من يقنت في الفجر ومنهم من لا يقنت في الفجر، ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء، ومنهم من لا يتوضأ من مس الذكر ومس النساء بشهوة، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك، ومنهم من يتوضأ من أكل لحم الإبل ومنهم من لا يتوضأ

58- صحيح جامع بيان العلم، ابن عبد البر: ص: 301.

من ذلك »[59].

لقد كان اختلافهم من باب اختلاف أمتي رحمة، ولذلك قد سمى محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي كتابه (رحمة الأمة في اختلاف الأئمة) كما كان من باب التنوع، وهذا النوع من الاختلاف له ثمار يانعة، إذ لولاه لكان الناس في ضيق.

يقول الشاطبي: « ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باباً من الاجتهاد، وجواز الاختلاف فيه، لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق ... فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعي فيهم فكان فتح باب للأمة للدخول في هذه الرحمة، فكيف لا يدخلون في قسم (من رحم الله) فاختلافهم في الفروع كاتفاقهم، والحمد لله »[60].

ليس العيب في الاختلاف، إذا ضبط بالضوابط الشرعية، وأنيط بالآداب التي درج عليها السلف الصالح، إنما العيب فيما يترتب على هذا الاختلاف أو ذاك، بسبب عدم فهم فقه الاختلاف: فيم نختلف؟ وكيف نختلف؟، وماذا يترتب على الاختلاف؟ وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يرى توسعة ورحمة في اختلاف الصحابة ﷺ في الفروع يقول: « ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا، كان في الأمر سعة »[61].

وقال القاسم: « لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي ﷺ في العمل، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة »[62] ورأى أن خيراً منه قد عمله وقال: « لقد وسع الله على الناس باختلاف أصحاب محمد ﷺ أي ذلك أخذت به لم يكن في نفسك منه شيء »[63].

لا ينبغي أن ننظر إلى الاختلاف هكذا بإطلاق، إذ هناك من الاختلاف ما هو

59- ولي الله الدهلوي، الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، ص: 164.

60- الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، المكتبة التوفيقية، (ب ت) ج؛ 2، ص: 500.

61- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (ت 436)، دار الكتب الإسلامية، ط: 2/1982، ص: 392 -393، وينظر الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، ج: 2، ص: 500، مع اختلاف طفيف في الصياغة بين المرجعين، ففي رواية الشاطبي، ص: 500 « وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل يقول أحدهم كان سنة ».

62- الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، ج2، ص: 500.

63- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 392.

محمود وما هو مذموم، ويتميز المحمود عن المذموم بجملة من المقاييس العلمية القاطعة، وموسوعة من الآداب والفضائل التي تجب مراعاتها عند الاختلاف، إذا التزمها الإنسان كان اختلافه محموداً موعوداً.

ومن جملة ما تجمل به فقهاؤنا وعلماؤنا بعد عصر الصحابة ﷺ منظومة من الآداب والأخلاق السامية، وسوف نشير إلى بعضها حسب مقتضى الحال، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآداب قدوة وأسوة لنا عموماً، وللذين جانبوا الصواب من ناشئة هذا العصر -خصوصاً- الذين فصلوا بين العلم والأدب والأخلاق، فتحولت لديهم الرحمة إلى نقمة، والتنوع إلى التضاد، والسعة إلى الضيق، والائتلاف إلى الافتراق.

لقد ورث جيل الفقهاء عن الصحابة والتابعين العلم معطراً بالأدب، لا ينفصمان مهما امتدا. ومن هذه الآداب:

أولاً: الإخلاص والاحتساب

ينبغي أن يكون وجه الله قصد المؤمن، وغايته، مخلصاً له الدين في كل ما يقول وما يفعل إن مجرد شعور المتعلم والعالم، بأن نفسه تنزع إلى إظهار البراعة، وسعة العلم، والتفوق على الآخرين، وانتزاع الإعجاب، وقطع الخصوم، وإفحامهم، وتعجيزهم. كل ذلك مجتمعاً أو منفرداً يحبط العمل، ويجلب سخط الله وغضبه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11]. ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [لزمر: 14]. ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [لزمر: 2-3]. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: 146]. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: 22]. ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: 14]. ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5].

إذا كان الله هو غاية الإنسان، فلماذا يثور ويغضب، ويشتم ويسب إذا خالفه شخص، أو ظهر الحق على يد ولسان غيره؛ يقول الشافعي: «ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يُظهر الله الحق على لساني أو على لسانه، وما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته[64]، واعتقدت

64- علم الجدل في علم الجدل، نجم الدين الطوفي الحنبلي، دار النشر فرانز شتاينز ، فيسبان، 1987، ص: 14.

محبته وودت لو انتفع الناس بعلمي دون أن ينسب إلي منه شيء»[65] فلنتأمل العبارتين «أن يظهر الله الحق على لساني أو على لسانه» «وودت لو انتفع الناس بعلمي دون أن ينسب إلي منه شيء» إنه المقصد الكريم، والمطمح النبيل، إنه إحقاق الحق وبطول الباطل، إنه الله –بدءاً وانتهاءً– ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9] هكذا علمنا القرآن الكريم لقد كانت دعوة الأنبياء لأقوامهم خالصة لوجه الله تعالى لا يطلبون بها أجراً أو مقابلاً مادياً، وإنما أجرهم على الله، رغم التعب والنصب والإعراض الذي لاقوه من أقوامهم، فقد كانوا يرددون ﴿إِنْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 127].

فلنتأمل جيداً هذه الآيات التي يتكرر فيها هذا المقطع في دعوة أنبياء الله – عليهم السلام–. قال تعالى في شأن دعوة هود عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: 51]. وفي شأنه أيضاً قال: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 127]، وفي شأن صالح عليه السلام قال: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 180]، وقال في شأن نوح عليه السلام: ﴿أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [لشعراء: 109].

إذا خلصت النية لله صلح كل شيء واستقام، وعلى هذا النهج الكريم سار فقهاؤنا وأئمتنا، إذ كان كل واحد منهم ينظر إلى إخوانه على أنهم عون له على إظهار الحق، والتمكين لدين الله، فبعضهم لبعض في طلب الحق «كناشد الضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق»[66] ما دام الله غايتهم.

لم يكن الخلاف لديهم وليد الهوى، ولا الرغبة في الاستعلاء، بل كان نُشدان الحق ضالة الجميع –رحمهم الله– ولولا هذه الأخلاق الكريمة والآداب الفاضلة لاندثر فقه الكثير من علماء سلفنا الصالح[67].

واشتهر عن الشافعي قوله: «ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة، وما ناظرت

65– أدب الحوار في الإسلام، د. محمد سيد طنطاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (ب ط) 1999، ص: 28، وينظر مناقب الإمام الشافعي، فخر الدين الرازي، دار الجيل ، بيروت، ط: 1، 1993 ص: 318– 319.

66– إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج: 1، ص: 47.

67– أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 132.

أحداً ما فأحببت أن يخطئ»[68]، وقال: «ما ناظرت قط أحداً على الغلبة، وبودي أن جميع الخلق يعلمون كتبي ولا ينسبون إلي منها حرفاً»[69] وقال: «ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، وما كلمت أحداً قط، إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه»[70].

ويقول ابن القيم: «إذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله، لم يضر ذلك الاختلاف»[71]. لقد درج علماؤنا على جعل القصد مرتكز كل عمل صالح، فبدونه تتغير المسميات وتتبدل المصطلحات، فيصير العلم تعالماً، والفقه تفيهقاً، والجدل مماراة، والمناظرة جدلاً مذموماً[72]، والعمل الصالح رياء.

قال الخطيب البغدادي في شأن الجدل: «ينبغي للمجادل أن يقدم على جداله تقوى الله تعالى ويخلص النية في جداله بأن يبتغي وجه الله تعالى ... وليكن قصده في نظره إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة للخصم»[73].

وإلى الذين استحوذ عليهم الهوى وهم يحسبون أنفسهم على الدعوة، وقد جعلوا إخلاصهم للمذهب والاتجاه، وجماعة زيد أو عمرو من الناس. إلى هؤلاء نقدم هذا الأدب الرفيع الذي تتلاشى فيه حظوظ النفس ومطامع الدنيا، كل ينحسر ويذوي أمام المقصد الكريم (الله) هذا الأدب مع الله الذي يظهر من خلال كلام الجويني -رحمه الله- يقول في الكافية: «على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وطلب مرضاته في امتثال أمره سبحانه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الحق عن الباطل. ويبالغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وتمحيق الباطل، ويتقي الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه، والتكسب والمماراة، والمحك والرياء، ويحذر أليم عقاب الله سبحانه، ولا يكون قصده الظفر بالخصم

68- مناقب الإمام الشافعي، فخر الدين الرازي، ص: 318.

69- المرجع نفسه.

70- المرجع نفسه، ص: 318 - 319.

71- الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، دار العاصمة، ط: 1412/2 ، ج: 2 ، ص: 519.

72- ينظر جملة من الآداب القيمة التي ضمنها الجويني كتابه (الكافيه في الجدل) (ب ط) من ص: 318- 325، والإحياء لأبي حامد الغزالي: (505) دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2001 ج: 45/1- 51.

73- منهج الجدل والمناظرة، د. عثمان علي حسن، ج: 2، ص: 744.

والسرور بالغلبة والقهر فإنه من دأب الأنعام الفحولة كالكباش والديكة »[74].

وعن أبي يوسف أنه قال: « يا قوم أريدوا بعلمكم الله عز وجل، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى افتضح »[75].

ثانياً: عدم التعصب للرأي أو المذهب

لقد اجتهد علماؤنا، واحتسبوا عملهم لله سبحانه وتعالى، أصاب من أصاب وأخطأ من أخطأ في الفروع، لأسباب أشرنا إلى بعضها، إنه بالاستلزام المنطقي لابد أن ينجم عن الاجتهاد الاختلاف.

غير أن اللافت للانتباه هنا أن اختلاف هذا الجمع الكريم ليس كاختلاف غيرهم إذ لا تعصب فيه للرأي ولا للمذهب، ولا ادعاء أن رأي أحدهم هو الصواب دون سواه ولا إلزام للمستفتين بالأخذ برأيه دون غيره، بل كثيراً ما يحيل بعضهم على بعض، مصرحاً أن زيداً أو عمراً أفقه منه في هذه المسألة أو تلك.

وإلى المتعصبين الجدد بغير هدى ولا دليل، لمذهب زيد أو عمرو؛ نقدم هذه النماذج الكريمة عساها تكون لنا ولهم معلماً نقتفي به آثار الصالحين. الذين عطروا تاريخنا الأمجد بالتسامح والنصفة والأريحية.

وعن كتاب (الإنصاف في بيان أسباب الخلاف) لولي الله الدهلوي، ننقل بعض النماذج الطيبة. يقول: « وقد كان في الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من يقرأ البسملة ومنهم من لا يقرؤها، ومنهم من يجهر بها، ومنهم من لا يجهر بها، ومنهم من يقنت في الفجر، ومنهم من لا يقنت في الفجر، ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك، ومنهم من يتوضأ من مس الذكر ومس النساء بشهوة، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك، ومنهم من يتوضأ من لحم الإبل، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك »[76]. ثم يقول: ومع هذا فقد كان بعضهم يصلي خلف بعض وقد صلى أصحاب

74- الكافية في الجدل، إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (487) دار الكتب العلمية بيروت ص: 99/1 ص318.

75- منهج الجدل والمناظرة، عثمان علي حسن، ج: 2، ص: 744

76- الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، ولي الله الدهلوي، ص: 164. وينظر: أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ض: 118. وينظر: أدب الحوار والخلاف، سالم البهنساوي، المكتب المصري =

أبي حنيفة والشافعي وغيرهم خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم، رغم أنهم لا يقرؤون البسملة لا سراً ولا جهراً. قيل للإمام أحمد: هل تصلي خلف من خرج منه الدم ولم يتوضأ[77] فقال: كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب؟.

لقد تتلمذ الإمام مالك على تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين[78] وزكى كتابه (الموطأ) سبعون عالماً[79]، ورغم ذلك حينما عزم المنصور على طبع نسخ منه وتوزيعها على الأمصار، وحمل الناس على الفقه الذي فيه –حسماً للخلاف– رفض الإمام مالك ذلك وقال: « يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم »[80] وفي رواية حلية الأولياء « قد رسخ في قلوب أهل كل بلد، ما اعتقدوه وعملوا به، ورد العامة على مثل هذا عسير »[81] وفي الحلية أيضاً تنسب الحادثة إلى المأمون حيث قال المأمون لمالك بن أنس: « تعال معنا فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ، فقال مالك: مالك إلى ذلك من سبيل، وذلك أن أصحاب النبي ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا، فعند كل أهل مصر علم »[82].

وتنسب أيضاً إلى هارون الرشيد: حيث قال مالك لهارون: « أما تعليق الموطأ في الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في الآفاق، وكل عند نفسه مصيب »[83].

=

الحديث، ط: 2005/1، ص: 41. وينظر حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ضبطه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت. 2001 ج: 1، ص: 296.

77– الإنصاف في بيان أسباب الخلاف، ولي الله الدهلوي، ص: 164، 165.

78– المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، د. علي جمعة محمد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 2004، ص: 140.

79– أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 119.

80– الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ولي الله الدهلوي، ص: 65 –66.

81– حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني بيروت ، لبنان، ط: 1، ج: 6، ص331.

82– حلية الأولياء، ج6، ص: 331

83– المرجع نفسه، ج: 6، ص: 332.

مظاهر عدم التعصب للرأي والمذهب

1. النهي عن التقليد: رغم أن أئمتنا بلغوا من الشهرة غايتها، ومن العلم ذروته، فأقرهم على الإمامة والتصدر للفتوى أساطين العلم والمشيخة في زمانهم، بل تسابق الخلفاء والملوك إلى كسب ودهم والانتفاع بعلمهم، وتعميم فقههم. ورغم هذا وذاك فقد كان الواحد منهم ينظر إلى ما استقر عليه فهمه في المسألة على أنه مجرد رأي، والرأي مشترك، ولا يدرى أي الرأيين أصوب عند الله.

قد يكون قول أحدهم: هذا رأيي والناس مخيرون في الأخذ وعدم الأخذ به معقولاً، غير أن يصل الأمر بهم إلى النهي عن عدم تقليدهم، فهذه لعمري -سابقة- لم يَجُدْ بها الزمان -في سابق ولا لاحق- وإليك هذه الأمثلة والآداب النادرة:

قال الإمام أحمد بن حنبل: لا تقلدني ولا تقلدن مالكاً ولا الأوزاعي والنخعي ولا غيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا[84] من الكتاب والسنة. وعن أبي يوسف وزفر وغيرهما أنهم قالوا: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا[85]، وفي إعلام الموقعين: لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا[86]. ويقول الشافعي لتلميذه المزني: يا إبراهيم لا تقلدني في كل ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك فإنه دين[87]. وقال أبو حنيفة: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، وكان إذا أفتى يقول: هذا رأي النعمان بن ثابت (يعني نفسه)، وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب[88].

قبل أن نتجاوز هذه النقطة بودنا أن نعلق قليلاً على بعض الفهوم المغلوطة لبعض الشباب الذين تلقفوا هذه التصريحات، دون فهم، ودون تمحيص، واعتقدوا أنهم المخاطبون بالنهي عن التقليد، فأقبلوا على النصوص يفسرون ويؤولون متجاوزين فهوماً

84- إعلام الموقعين، ابن القيم، ج: 1، ص: 463.

85- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ج: 1، ص: 193، الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، الدهلوي، ص: 159.

86- إعلام الموقعين، ابن القيم، ج: 1، ص: 463.

87- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ج: 1، ص: 292.

88- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ولي الله الدهلوي، ص: 156. وحجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ج: 1، ص: 192. والمدخل في الفقه الإسلامي، د. محمد مصطفى شلبي، ص: 208. وأدب الحوار والخلاف، سالم البهنساوي، ص: 67.

ومذاهب تعبدت بها الأمة ربها قروناً متلاحقة.

لقد ظن هؤلاء أن نهج منهج الصحابة والتابعين والأئمة يعتبر من التقليد المذموم المنهي عنه -لقد أسرفوا في العتب على المخالفين لهم في المنهج، وأصدروا فتاوى غريبة- وقد غابت عن هؤلاء جملة من الحقائق منها:

أ. أن للاجتهاد شروطاً لا تتوفر إلا في من تتلمذ على كبار الشيوخ وقرأ مئات الكتب في المجال الشرعي -خصوصاً- والمعرفي عموماً، واعتقد أن الشروط التي حددها العلماء للمجتهد في كتب الأصول، لا تتوفر في وقتنا الراهن إلا في آحاد يعدون على الأصابع -على مستوى العالم الإسلامي كله- أما هذه الألوف المؤلفة من الذين يعتقدون أنهم بلغوا درجة الاجتهاد؛ فنقول لهم: اعرضوا أنفسكم على هذه الشروط[89]، ثم انظروا كم تزنون في هذا الشأن؟

ب. للاجتهاد مراتب: فأعلى هذه المراتب (المجتهدون في الشرع)، وهم المجتهدون المستقلون، وهم الذين توفرت فيهم الشروط التي أشرنا إليها كلها، واجتهادهم مطلق، ومن هذه الطبقة فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، وفقهاء التابعين من أمثال: سعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، والفقهاء المجتهدون من أمثال جعفر الصادق، وأبوه محمد الباقر، وأبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، وأبو ثور ... وغيرهم، واختلف في عد أبي يوسف ومحمد وزفر (من تلاميذ أبي حنيفة) من هذا الصنف[90]، ثم بعد هذه الطبقة تأتي بقية الطبقات، واجتهادها يكون داخل المذهب، بمعنى أن اجتهادهم مقيد، ومنهم: (المجتهدون المنتسبون) و(المجتهدون في المذهب) و(المجتهدون المرجحون) و(طبقة المحافظين) ثم تأتي بعد ذلك طبقة (المقلدين)[91]. والغريب في الأمر أن

89- من بين هذه الشروط: 1- العلم بالعربية، وقد اشترط الغزالي التبحر في اللغة العربية حتى يبلغ درجة الاجتهاد، أما الشاطبي فيرى أن من قصر فهمه في العربية لم يكن فهمه حجة ولا كان قولاً مقبولاً 2- العلم بالقرآن ناسخه ومنسوخه 3- العلم بالسنة 4- معرفة مواضع الإجماع ومواضع الخلاف 5- معرفة القياس 6- معرفة مقاصد الأحكام 7- صحة وحسن التقدير 8- صحة النية وسلامة الاعتقاد ، ينظر: أصول الفقه، العلامة محمد أبو زهرة، 314-349، وأضاف البعض معرفة فقه الواقع وثقافة العصر.

90- أصول الفقه، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 2004، ص: 350

91- تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 1996، ص: 330- 338 ، وأصول =

أدعياء الاجتهاد الجدد قد حشروا أنفسهم مع الطبقة الأولى، وهذا من مساخر الأيام، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!.

ج. إن نهي علمائنا عن تقليدهم لا يعني العامة في شيء من قريب أو بعيد. فهو يخص الذين بلغوا درجة الاجتهاد، إذ لو جاز لنا أن نحمل القول على العموم لجاز للأمي، والجاهل، والصبي، والأعجمي، أن يجتهدوا وينبذوا التقليد!! وهذا غير صحيح، إذ كل ذلك النهي المتقدم يخص العلماء المجتهدين، ولا يعني العامة بحال من الأحوال، ولهذا وجدنا ابن عبد البر بعد أن أورد هذه الآثار المروية في النهي عن التقليد قال: «وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها لأنها لا تتبين موقع الحجة. ولم تختلف كلمة العلماء في أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 43] فكذلك من لا علم ولا بصر بمعنى ما يدين به؛ لابد من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا وذلك -والله أعلم- لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم»[92] وقال مالك: يجب على العوام تقليد المجتهدين في الأحكام[93] وهو قول جمهور العلماء؛ بل حتى مجتهدونا الكبار قلدوا من سبقهم من كبار الصحابة والتابعين.

يقول الشافعي: رأيهم خير لنا من رأينا لأنفسنا. وعلق أحدهم على هذا القول بقوله: ونحن نقول ونصدق أن رأي الشافعي والأئمة معه لنا خير من رأينا لأنفسنا[94] وقد صرح الشافعي أنه قلد عمر وعثمان وزيداً وعطاءً، ومالك كان لا يخرج عن عمل أهل المدينة وكذا أبو حنيفة[95]، وابن حنبل. كل قلد.

قال مالك عن فقهه: هو رأي من آراء الخلفاء والأئمة لم يخرج عنهم إلى غيرهم، ويقول أبو حنيفة: «إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات فإذا لم أجد في كتاب الله وسنة

=

الفقه، للمؤلف نفسه: ص: 350-358.

92- جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمرو يوسف بن عبد البر، ص: 446

93- الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، ج: 2 ص: 343.

94- إعلام الموقعين، ابن القيم، ج: 1، ص: 466.

95- ينظر: أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، دار الفكر العربي، ط: 2، 1996، ص: 258.

رسوله ﷺ، أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن المسيب ... فلي أن أجتهد كما اجتهدوا»[96].

د. إن التقليد المذموم هو ما كان في حق القادر على الاجتهاد.

2. عدم القطع بصحة الرأي: لقد التزم علماؤنا بهذا الأدب الرفيع بحيث لم يدع أحدهم أنَّ رأيه هو الصواب على سبيل القطع. يقول الإمام الشافعي ﷺ «رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب». وقال الإمام مالك قولته المشهورة التي صارت حلية كل لسان «ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ»[97] وأحياناً ترد العبارة «ما من أحد ... إلا صاحب هذه الروضة».

3. عدم حمل وإلزام الناس على مذهبهم: لقد مر معنا كيف رفض الإمام مالك ما عزم عليه المنصور من حمل الناس على الموطأ ... وكذلك لما قيل لعمر بن عبد العزيز لو جمعت الناس قال: «ما يسرني أنهم لم يختلفوا، ثم كتب إلى الآفاق، وإلى الأمصار ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم»[98]. وقال أبو حنيفة «هذا الذي نحن فيه رأي، لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شيء أحسن فليأت به»[99]. وقال مالك: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي»، قيل لأبي حنيفة «يا أبا حنيفة هذا الذي نفتي به هو الحق الذي لا شك فيه، فقال: لا أدري لعله الباطل الذي لا شك فيه»[100].

4. الدعوة إلى الأخذ بالرأي الآخر: ولهذه الحالة صورتان: الصورة الأولى إذا ثبت الحديث بما يخالف رأيه من طريق آخر، ففي هذه الحالة فإن الفقيه نفسه هو الذي يطالب الآخر (المجتهد) بعدم الأخذ برأيه!! يقول الشافعي: «إذا صح الحديث فهو

96- ينظر: أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، ص: 262. د. طه جابر العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، ص: 93.

97- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ج: 1، ص: 292. الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، الدهلوي، ص: 157. المدخل في الفقه الإسلامي، د. محمد مصطفى شلبي، 207.

98- ضوابط الاختلاف في ميزان السنة، د. عبد الله شعبان، دار الحديث القاهرة، ط: 1 1997، ص: 96.

99- المرجع نفسه، ص: 97، وينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، ص: 358.

100- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص: 351.

مذهبي »[101]، وفي رواية أخرى « إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط »[102]، وأوضح مثال على ذلك؛ ما روي عن الإمام مالك: في تخليل الرجلين إذ كان يقول: ليس ذلك على الناس فلما ذكر له عبد الله بن وهب سنة، قال هذا الحديث حسن. يقول: عبد الله بن وهب: ثم سمعته يعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع[103].

الصورة الثانية: الإحالة على رأي غيره: ومثاله: كان ابن عيينة، نِدًّا للإمام مالك، ورغم ذلك ما كان يجد غضاضة وهو يحيل على الشافعي ويقول: سلوا هذا[104].

وقال أحدهم لأحمد بن حنبل « يا أبا عبد الله لا يصح في هذا حديث، فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه يقول الشافعي، وحجته أثبت شيء فيه »[105].

5. العودة إلى الحق متى تبين: ليست القضية بالنسبة إليهم قضية غلبة وانتصار، وإنما القضية أن يستبين الحق ويتمحض، وأن يقوم عليه دليل، ولا يهم الأمر بعد ذلك مع من يكون الحق، معه أو مع المخالف، إذ كثيراً ما تجري محاورات ومناظرات ويحتفظ كل برأيه، ولكن حينما يعود بعد ذلك ويمحص القضية، ويتبين له خطؤه يعود إلى الحق، ويعلن ذلك أمام مخالفه ولو كان أمام جماعة.

قال عبد الرحمن بن مهدي (298 هـ) « ذاكرت عبيد الله بن الحسن القاضي بحديث، وهو يومئذ قاض، فخالفني فيه، فدخلت عليه وعنده الناس سماطين[106] فقال لي: ذلك الحديث كما قلتَ أنت وأرجع وأنا صاغر »[107]. وفي رواية قال: « لأن أكون ذنباً في الحق أحبُّ إليَّ من أن أكون رأساً في الباطل »[108].

101- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ج: 1، ص: 292

102- أخرجه البيهقي في المناقب.

103- ضوابط الاختلاف في ميزان السنة، د. عبد الله شعبان، ص: 220.

104- مناقب الإمام الشافعي، فخر الدين الرازي، ص: 57.

105- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت 420) ج: 9، ص: 102.

106- سماطين: أي صفين، فكل صف من الرجال سماط.

107- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 211.

108- منهج الجدل والمناظرة، د. عثمان علي حسن، ج: 2، ص: 760-761.

وحكى ابن حزم قصة جميلة مليئة بالعبر والآداب، يتضح من خلالها أن العلم بالنسبة إلى سلفنا لم يكن مطية للقهر والغلبة، وطلب الشهرة، وذيوع الصيت. يقول ابن حزم: «ناظرت رجلاً من أصحابنا فعَلَوْتُه ... (لعيب في لسانه) وانفض المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها في بعض الكتب، فوجدت برهاناً صحيحاً يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس، فعرفته بذلك، ثم إني قد علَّمتُ على المكان من الكتاب، فقال ما تريد؟ فقلتُ: حمل هذا الكتاب وعرضه على فلان، وإعلامه بأنه المحق، وأنا كنت المبطل، وأنا راجع إلى قوله، (فبهت) وقال لي: وتسمح نفسك بهذا؟ فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا ما أخرته إلى غدٍ»[109].

ومن مناقب الإمام أحمد بن حنبل أنه كان ينهى تلاميذه أن ينقلوا أو يدونوا فتاواه لأنها آراء لا استقرار لها، وقد يرجع عنها إذا ما ظهر له وجه الصواب في غيرها[110].

ثالثاً: الاعتراف بالفضل لأهل الفضل مع الاختلاف في الرأي

إن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

لقد اختلف العلماء وأئمة المذاهب حول قضايا جوهرية، وتباينت آراؤهم حول المسألة الواحدة. باختلاف مبلغ العلم، والأصول المعتمدة في كل مذهب، وأحياناً يكون الاختلاف داخل المذهب بين تلامذته أنفسهم، كما حدث بين أتباع المذهب الحنفي، بل بين أبي حنيفة وتلامذته، وبين أتباع المذهب المالكي[111] والشافعي وغيرهم كثيراً ما يحتد النقاش بينهم حول مسألة ما، وكثيراً ما تنتهي المناظرات السجالية باحتفاظ كل برأيه، معتقداً أن رأيه صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب. غير أن هذا الاختلاف لم يكن -يوماً- وليد الهوى الذي يعمي ويصم، بل كان وليد نشدان الحق، الذي يجمع الكل في دوحة واحدة، وأرومة مباركة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 24-25] كانوا معنيين بالامتثال بمبدأ ﴿وَلَا

109- منهج الجدل والمناظرة، د. عثمان علي حسن، ص: 761.

110- أسباب اختلاف الفقهاء، علي الخفيف، دار الفكر العربي، ط: 2، 1996، ص: 267.

111- وقد وضَّح ذلك ابن عبد البر في كتابه (اختلاف أصحاب مالك في روايتهم عنه).

نَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ [الأعراف: 85] وقوله: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: 283].

لم يمنعهم اختلافهم من الإقرار بالفضل لأهل الفضل، وإن اختلفوا في القضية، فأهل المروءة لا يغمطون الناس حقهم؛ بل أحياناً يقرون بالأفضلية لمن خالفهم، مثلها يفعل الرياضي الشهم حينما يقوم برفع يد خصمه الذي هزمه على حلبة الملاكمة بكل روح رياضية.

إن المتأمل في التصريحات التي ستجيء هاطلة مدرارة ليتساءل هل هؤلاء كانوا مختلفين فعلاً؟ هل هؤلاء هم الذين استقلوا بمذاهب متباينة في الفروع؟ فلنتأمل جيداً مكانة بعضهم عند بعض، وآراءهم في مخالفيهم، وهل نستطيع أن نسمي الذي كان بينهم إلا فقه ائتلاف[112]. وإن سميناه اختلافاً، فهو الاختلاف المحمود الذي وقع بين أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنه بدءًا وانتهاءً لا يأتي إلا بخير.

وأعتقد جازماً أننا بعد تأمل هذه التصريحات، لا نملك إلا أن نقول: لله دركم يا صحب رسول الله ﷺ، ولله دركم يا تلاميذ رسول الله ﷺ ولعمري ذلك لم يحدث ولن يحدث إلا في أمة محمد ﷺ.!! وهذه أمثلة لإنصاف العلماء لبعضهم

رأي بعض العلماء في أبي حنيفة رحمة الله عليه

وغالبية من سوف نشير إلى أسمائهم مع أبي حنيفة أو غيره من المخالفين في المذهب:

- قال الليث بن سعد: لقيت مالكاً في المدينة فقلت له إني أراك تمسح العرق عن جبينك، قال عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه[113] يا مصري!!
- وسئل مالك يوماً عن أبي حنيفة فقال: لو جاء إلى أساطينكم هذه (سواري المسجد) فقايسكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب[114].

112- كان سفيان بن سعيد يقول: لا تقولوا اختلف العلماء في كذا وقولوا وسّع العلماء على الأمة بكذا، وقال الإمام أحمد لأحد الأئمة الذي سمى كتابه الاختلاف: سمه كتاب السِّعة وقد سمى محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي، كتابه (رحمة الأمة في اختلاف الأئمة).

113- المدخل في الفقه الإسلامي، د. محمد مصطفى شلبي، الدار الجامعية، ط: 1985/10، ص: 173، وأدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 124 -125 (وفيه لفظ يا مصري).

114- أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 131.

- وقال الشافعي: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه[115].
- وقال عنه سفيان الثوري، وابن المبارك: أبو حنيفة أفقه الناس[116].
- وقد كان عبد الله بن المبارك يكثر الثناء على أبي حنيفة، ويزكيه، ويدافع عنه، ولما حاول بعض جلسائه (ابن المبارك) أن ينال من أبي حنيفة. قال له اسكت والله لو رأيت أبا حنيفة لرأيت عقلاً ونبلاً.
- وعن ابن المبارك أن مالكاً قال عن أبي حنيفة: «هذا أبو حنيفة العراقي لو قال هذه الأسطوانة من ذهب لخرجت كما قال»[117].

رأي بعض العلماء في الإمام مالك رحمة الله عليه

- قال عنه الشافعي: مالك بن أنس معلمي، وعنه أخذت العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمنُّ عليَّ من مالك بن أنس.
- وقال: إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك «كان مالك إذا شكَّ في شيء من الحديث تركه كله»[118].
- وقال: «إذا جاءك الأثر فمالك النجم»[119].
- وقال عنه أيضاً: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز»[120].
- وقال: «ما أعلم بعد كتاب الله تعالى أصحَّ من موطأ مالك»[121].
- يعتبر ابن عيينة قريناً ونداً لمالك، ورغم ذلك فقد اعترف لمالك بالأفضلية؛ فقد ذكر ابن عيينة مرة حديثاً، فقيل له إن مالكاً يخالفك في هذا الحديث. فقال: للقائل: أتقرنني بمالك؟
- وقيل لسفيان بن عيينة من المعني بقول الرسول ﷺ «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة». فقال: إنه مالك بن

115- المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، د. علي جمعة محمد، ص: 75.

116- المرجع نفسه، ص: 173.

117- أخبار أبي حنيفة وأصحابه، القاضي أبو عبد الله حسين بن علي الصيمري (ت436هـ) عالم الكتب، ط: 2/1985، ص: 81-82.

118- مناقب الإمام الشافعي، الإمام فخر الدين الرازي، ص: 48.

119- المرجع نفسه

120- المرجع نفسه

121- المرجع نفسه، ص: 49

أنس!!.

- وقال أحمد بن حنبل: مجيباً عن سؤال أحدهم: الرجل يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه؟ فقال يحفظ حديث مالك. قيل فالرأي؟ قال: رأي مالك[122].
- وسئل أحمد بن حنبل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال مالك أكبر في قلبي، قال: فقلت: فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال مالك أحبُّ إليَّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة[123].

أما رسالة الليث بن سعد إلى الإمام مالك فهي رسالة طويلة مليئة بالأدب والاحترام وهي جديرة بالدراسة والتأمل. وقد ختمها بقوله: « فهذه منزلتك عندي، ورأيي فيك فاستيقنه ولا تترك الكتاب إليَّ بخبرك وحالك وولدك. فإني أسر بذلك »[124].

رأي بعض العلماء في الشافعي رحمة الله عليه

- قال أحمد بن حنبل كان الشافعي –رحمه الله– كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف[125]. وقال: لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث[126]. وعن داود بن علي الأصبهاني قال سمعت إسحاق بن راهويه يقول: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعال حتى أريك رجلاً لم تعرف عيناك مثله، فأراني الشافعي[127].
- روى الخطيب البغدادي عن عبد الرحمن بن مهدي عن مالك أنه قال: « ما أتاني قرشي أفهم من هذا الفتى »[128] يعني الشافعي.
- وقال عنه سفيان بن عيينة: « إن مات الشافعي فقد مات أفضل أهل زمانه »[129].
- وقال عنه محمد بن الحسن الشيباني: « إذا كان أحد يخالفنا ويثبت خلافه فالشافعي.

122– المدخل إلى دراسة المذاهب الإسلامية، د. علي جمعة محمد، ص: 140.

123– أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 129.

124– تنظر الرسالة بطولها في إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، ج2، ص: 67.

125– مناقب الشافعي، فخر الين الرازي، ص 58.

126– المدخل في الفقه الإسلامي، د. محمد مصطفى شلبي، ص: 193، وضوابط الاختلاف، د. محمد شعبان، ص: 57.

127– أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 134.

128– مناقب الإمام الشافعي، الإمام فخر الدين الرازي، ص: 56. ومنهج الجدل والمناظرة، د. عثمان علي حسن، ج: 2، ص: 760–761.

129– المرجع نفسه، ص: 57.

قيل له: لم؟ قال: لتأنيه، ولتثبته في السؤال والاستماع »[130].

رأي الشافعي في أحمد بن حنبل رحمة الله عليه

الشافعي على جلالة قدره، ورغم كونه أستاذاً لأحمد بن حنبل؛ إلا أنه كان يقر له بالعلم وبالدراية العميقة بالحديث؛ بل يعلمه بأنه أعلم منه فيه.

- قال الشافعي لأحمد: « أنتم أعلم بالأخبار الصحيحة منَّا. فإذا كان خبر صحيح فأعلموني حتى أذهب إليه. كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً »[131].
- وكان الشافعي يعظم ابن حنبل فيقول: حدثنا الثقة من أصحابنا أو أنبأنا الثقة، أو أخبرنا الثقة.
- وقال أيضاً: ما رأيت أعقل من أحمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمي[132].
- وقال عنه أيضاً: خرجت من بغداد فما خلفت فيها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل[133].
- وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: « أنتم أعلم بالحديث منِّي؛ فإذا صحَّ عندكم الحديث عن النبي ﷺ فقولوا لنا حتَّى نأخذ به »[134].
- يقول فخر الدين الرازي: لولا إنصافه فمن الذي كان يكلفه الاعتراف بالتوقف[135].

انظر كيف تختفي أمراض النفس المقبوحة، فلا حسد، ولا غلَّ، ولا غيرة، لقد طواها دفء الأخوة الصادقة، وأذابها القصد الكريم، والمطمح النبيل، إنها الهمم والنفوس الطامحة الكبيرة، التي لا تلوي على الهباءة والقذاة، إن النفوس المبصرة تشرئب دوماً إلى نور الله الوضَّاء، وتسمو عن دنيا الخفافيش وهوامّ الليل، إنها تطمح دوماً للوصول إلى عالم الطهر والفيض، لهذا وذاك طهرت نفوسهم وتضوعت أريجاً طيباً. فالنفس الطيبة لا يصدر عنها إلا الريح الطيبة.

لما بدأت مظاهر الحيدة والتنكب تظهر في دنيا المسلمين؛ لاحظ كيف تتغير

130- مناقب الإمام الشافعي، الإمام فخر الدين الرازي، ص: 57.
131- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ولي الله الدهلوي، ص: 83.
132- المدخل إلى دراسة المذاهب الإسلامية، د. علي جمعة محمد. ص: 192.
133- المدخل في الفقه الإسلامي، د. محمد مصطفى شلبي، ص: 200.
134- مناقب الإمام الشافعي، فخر الدين الرازي، ص: 309.
135- المرجع نفسه: ص: 309.

النفوس وتأسن، يقول أبو حامد الغزالي «فانظر إلى مناظري زمانك اليوم، وكيف يسودُّ وجه أحدهم، إذا اتضح الحق على لسان خصمه؟! وكيف يخجل به؟! وكيف يجهد في مجاهدته؟! وكيف يذم من أفحمه طول عمره»[136].

لا أدري ماذا يقول أبو حامد الغزالي لو عاش بيننا الآن ورأى مظاهر الترف الفكري، إذ يتناطح العلماء نطاح الكباش من أجل القشة والقذاة، ويديرون حولها موسوعة من التحليل والتحريم والتفسيق والترذيل والتقبيح. وهلم جرا.

رابعاً: التورع عن الفتوى، والقول بغير علم

خلق كريم، توارثه الأخلاف عن الأسلاف، فصار حلية تزين قول العلماء إنه التوَّرع عن الفتوى، وقول لا أدري، هما أدبان مقترنان، يكمل أحدهما الآخر، ولا يتم علم العالم إلا بهما.

لقد علمنا ربّ العزة هذا الأدب الكريم على لسان الملائكة حين قالت: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 32][137]، وعن طريق نبي الله موسى عليه السلام الذي اعتقد أنه أعلم الناس في زمانه، فدله على الخضر -عليه السلام- ليتعلم ما لم يكن يعلم[138]، كما تعلمنا من رسول الله ﷺ هذا الأدب الرفيع. إذ كان يسأل مراراً فيسكت ولا يجيب حتى يأتيه الوحي. قال ابن وهب «حدثني مالك قال: كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وسيد العالمين يسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيه الوحي»؟[139].

وعن النبع الصافي أخذ الصحب الكرام هذا الأدب الجم، فهذا أبو بكر الصديق وقد خصَّه الله بما خصه به من الفضل والعلم يقول: أي سماء تظلني وأيُّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله بغير علم[140]، وهذا عليٌّ -كرم الله وجهه-. يقول: «أيّ أرضٍ

136- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج: 1، ص: 47. وينظر: فن الحوار: أصوله آدابه، صفات المحاور، أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي، دار الإيمان، الإسكندرية، 2003، ص: 65.

137- ذكر عبد الرحمن بن مهدي عن مالك هذا، وفي روايته «الملائكة قالت: لا علم إلا ما علمتنا».

138- ينظر الآيات: من 60 - 82 من سورة الكهف، وينظر القصة بطولها في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه برقم: 4725.

139- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 356.

140- المرجع نفسه، ص: 353، وينظر إعلام الموقعين، ابن القيم، ج: 1، ص: 449، وفيه اختلاف في =

تقلني أو سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[141]. وهذا عبد الله بن عمر وقد سئل عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل نعما قاله عبد الله بن عمر. سئل عما لا يعلم، فقال: لا علم لي به[142]. وقال أبو حصين الأسدي: « إن أحدهم ليفتي ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر »[143].

أردت من هذا التمهيد الوجيز أن أربط بين أدب الأسلاف والأخلاف، لنتبين بوضوح أنهما يصدران من مشكاة واحدة، ألم يلتزم فقهاؤنا بالأخذ بأقوال الصحابة إن لم يجدوا الحكم في الكتاب والسنة؟ غير أن ما لم يلتفت إليه الكثير أن فقهاءنا وعلماءنا – رحمهم الله– أخذوا عن هؤلاء العلم والأدب معاً، وهذا ما سوف يتجلّى لنا من خلال هذه الأمثلة والنماذج النادرة.

من خلال تتبعي لهذا الأدب لدى علمائنا تبيَّن لي أن الإمام مالك –رحمه الله– هو بحق « إمام لا أدري »!! –رغم كونه الأدرى في زمانه– قال موسى بن داود ما رأيت أحداً من العلماء أكثر أن يقول: لا أحسن من مالك[144] فرغم كونه (إمام دار الهجرة) و(إمام المدينة) ورغم مقولة « لا يفتى ومالك في المدينة »، ورغم تتلمذه على 900 شيخ منهم 300 من التابعين[145] ورغم أنه المعني بقول الرسول ﷺ على رأي ابن عيينة، والمالكية عموماً.

رغم هذا وذاك فقد كان لا يملّ ولا يفتر عن قول لا أدري. قال ابن وهب في كتاب المجالس، كنت أسمعه كثيراً ما يقول لا أدري ... وقال في موضع آخر: لو كتبنا عن مالك لا أدري لملأنا الألواح!![146]. هذا الذي طبقت سمعته الآفاق، سئل مرة عن

=

الرواية؛ حيث جاءت: « سئل أبو بكر الصديق ﷺ عن آية، فقال: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني، وأين أذهب؟ وكيف أصنع إذا قلت في كتاب الله بغير ما أراد الله بها ».

141– جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر.

142– المرجع نفسه، ص: 354، وينظر إعلام الموقعين، ابن القيم، ج: 1، ص: 450، مع اختلاف طفيف في الرواية، « نعما قال أبو عبد الرحمن سئل عما لا يدري فقال: لا أدري ».

143– إعلام الموقعين، ابن القيم، ج: 1، ص: 450.

144– الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2003، ج4، ص180.

145– المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، د. علي جمعة محمد، ص: 140.

146– جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 356.

ثمان وأربعين مسألة. فقال: عن اثنتين وثلاثين منها. لا أدري[147]. وسئل مرة عن أربعينَ مسألة فقال في ست وثلاثين منها لا أدري[148]. وعن خالد بن خداش قال: قدمت على مالك من العراق، وسألته عن أربعين مسألة، فما أجابني إلا في خمس مسائل[149]. وقال أحمد بن حنبل: سمعت الشافعي قال سمعت مالكاً قال: سمعت ابن عجلان قال: « إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله »[150].

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس يسأله عن شيء. فقال له مالك لا أدري، قال الرجل: فأذكر عنك أنَّك لا تدري؟ قال: نعم، احكِ عنِّي لا أدري!!. وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال له يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر[151]، حملني أهل بلدي مسألة ... فسأله. فقال: لا أحسنها. فبهت الرجل، كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء، ثم قال: وأي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم، قال مالك: لا أحسن[152]. وعن ابن وهب قال: قال مالك: لأن يعيش الرجل جاهلاً خير من أن يقول على الله ما لا يعلم[153]. وسئل مرة عن نيف وعشرين مسألة فما أجاب عنها إلا في واحدة[154]. يقول الشاطبي وربما سئل مرة عن مائة مسألة فيجيب منها في خمس أو عشرٍ ويقول في الباقي لا أدري[155].

147- الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ج4، ص: 181.

148- الإحكام في أصول الأحكام، الإمام سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي محمد علي بن محمد الآمدي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1981، ج: 3، ص: 206.

149- أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني: ص: 127.

150- أخلاق العلماء، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري (ت 360 هـ)، مكتبة الثقافة الدينية 1996 (بدون طبعة)، ص: 71، وينظر: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 357، وينظر، الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ج 4، ص: 181.

151- وفي رواية الشاطبي أن الرجل جاء إليه من بلاد المغرب، الموافقات، الشاطبي: ج: 4. ص: 180.

152- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 35، وانظر الموافقات، للشاطبي، ج: 4، ص: 180. وينظر المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، د. علي جمعة محمد، ص: 140. وينظر أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 127، مع اختلاف طفيف في الصيغة « قال الرجل ومن يعلمها؟ قال مالك: من علمه الله، قالت الملائكة: لا علم لنا إلا ما علمتنا ».

153- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص 356.

154- الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ج4، ص: 181.

155- المرجع نفسه.

هذا هو الإمام الذي زكاه سبعون عالماً من علماء زمانه، وهذا هو صاحب (الموطأ) الذي انتخب واعتبر أصوب كتاب يومئذ بعد كتاب الله تعالى. واختاره المنصور ليكون مذهب الأمة -قاصيها ودانيها- وهذا هو صاحب المذهب المشهور الذي تعبد به الله الملايين ولا يزالون ...

في زمن القحط والجفاف العلمي، تمنينا سماع كلمة لا أدري من أفواه علمائنا!! إنك تجد كلَّ شيء إلا كلمة لا أدري، وكأنها ليست عربية، وكأن لا وجود لها في قواميسنا، رغم أن الساحة العلمية تعج بأعشار العلماء والمتفيهقين. وقد تجد من لم يقرأ كتاباً فقهياً واحداً. ورغم ذلك يدعي أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق!! التقى أحد الدعاة (عالماً) من هذا الصنف الذي بلغ درجة الاجتهاد وهو لا يعرف العربية؛ وكتب التشريع والفقه الإسلامي، فقال له الداعية كيف تكون مجتهداً بدون معرفة هذا ولا ذاك فقال (المتفيهق) لست بحاجة إلى دراسة الإسلام من مصادره الفقهية لأني مجتهد!![156].

قال أبو حنيفة -رحمه الله- قدمت البصرة وظننت أني لا أسأل عن مسألة إلا أجبت فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب[157].

وإذ نتكلم اليوم عن فقه (لا أدري) فينبغي للإنسان أن يتحلَّى بهذا الأدب. فلا يستنكف أن يقول لا أدري، ولا أعلم، فيما لم يعلم، أو يتضح له الدليل. «وهذا طريق أئمة المسلمين من الصحابة ومن بعدهم من أئمة المسلمين. وهكذا يجب على كل من سئل عن شيء لم يتقدم فيه العلم أن يقول: الله أعلم به، ولا علم لي به، ولا يتكلف ما لا يعلمه، فهو أعذر عند الله وعند ذوي الألباب»[158].

إن كلمة لا أدري صنو ومصدر عن التورع، ولذلك اعتبرت هذين الأدبين شقيقين متلازمين وأدمجتهما تحت عنوان واحد. إن القول على الله بغير علم. كبيرة تسخط صاحبها، ومن هنا ارتبط قول لا أعلم ولا أدري بالتورع، والخوف من مجانبة الصواب. وقد مرت بنا نماذج طيبة للصحب الكرام، وقد توقفوا في مسائل شتَّى، وأحال بعضهم على بعض رجاء أن يكفيهم مئونة الفتوى، ومن ثمة مخافة الوقوع في الزلل، وهذا الغصن الرطب هو من تلك الدوحة المباركة التي ورثته جينات امتزاج العلم بالورع.

156- المتفيهقون، د. محمد حسن هيتو، دار البشائر الإسلامية، ط: 1، ص: 1994، ص: 50.

157- المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، د. علي جمعة محمد، ص: 74.

158- أخلاق العلماء، عبد الله الآجري، ص: 68.

وهذه نماذج مبرورة لورع علمائنا وفقهائنا:

يقول ابن القيم: «وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التَّسرع في الفتوى ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره؛ فإذا رأى أنها قد تعينت عليه، بذل جهده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة، أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى»[159].

وإلى الذين يتهافتون على الفتاوى بغير علم، ولا يحذرون مغبة ما يصنعون، نهدي هذا النموذج القيم، وهو على منوال ما دار بين ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير. عن عمير بن سعيد قال: سألت علقمة عن مسألة فقال، ائت عبيدة فاسأله فأتيت عبيدة، فقال ائت علقمة، فقلت علقمة أرسلني إليك، فقال ائت مسروقاً فاسأله، فأتيت مسروقاً فسألته. فقال: ائت علقمة فاسأله. فقلت علقمة أرسلني إلى عبيدة، وعبيدة أرسلني إليك. فقال ائت عبد الرحمن ابن أبي ليلى، فأتيت عبد الرحمن ابن أبي ليلى، فسألته، فكرهه، ثم رجعت إلى علقمة فأخبرته. قال: كان يقال: أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علماً[160] [161].

وفي هذا الصدد، أجاب الشعبي حينما سئل: كيف كنتم تصنعون إذا سئلتم؟ قال على الخبير وقعت. كان إذا سئل الرجل قال لصاحبه. أفتهم، فلا يزال حتى يرجع إلى الأول[162].

ولقد كان العلماء في عصر سعيد بن المسيب وإبراهيم والزهري، وفي عصر مالك وسفيان، ومن بعدهم قوم يكرهون الخوض بالرأي، ويهابون الفتيا والاستنباط إلا لضرورة لا يجدون منها بداً[163].

وروى بشر بن الحارث عن سفيان قال: أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، ولا يفتون حتى لا يجدوا بداً من أن يفتوا[164]. هكذا كانوا يتهيبون

159- وينظر إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، ج: 1، ص: 37، والمدخل إلى الفقه الإسلامي د. محمد شلبي، ص: 117

160- أخلاق العلماء، عبد الله الآجري، ص: 63-64.

161- روى الدارمي عن عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً، «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار».

162- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ج ك1، ص: 275.

163- المرجع نفسه، ص: 274.

164- أخلاق العلماء، عبد الله الآجري، ص: 62.

الفتوى، مخافة أن يكون ممن عناهم الله في قوله ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا ﴾ [الأعراف: 33]، لذلك كانوا يتريثون، ويتمنوْن لو أنَّ غيرهم أغناهم عن الفتوى في هذه المسألة أو تلك، وإذا لم يجدوا مندوحة أفتوْا وقلوبهم وجلة وأوصالهم راجعة، وميزان الله نصب أعينهم، وعين الله ترقبهم.

كان مالك -رحمه الله- حينما يسأل، يقول للسائل: «انصرف حتى أنظر فيها. فلما قيل له في ذلك بكى وقال: إني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأيُّ يوم»[165]. وقد كانت المسألة الواحدة تمنعه من لذيذ الطعام ودفء النوم ليالي متطاولة، وقد يتوقف ويتردد في شأنها قبل الفتوى ما يقارب العشرين سنة قال الإمام الشاطبي: «قال الإمام مالك بن أنس: ربما وردت عليَّ المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم ... إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة، فما اتفق لي فيها رأي الآن ... وربما وردت عليَّ المسألة فأفكر فيها ليالي»[166].

ثم يقول الشاطبي: «فإذا سئل عن مسألة تغير لونه -وكان أحمر- فيصفر، وينكس رأسه، يحرك شفتيه ثم يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله ...! فربما سئل عن خمسين مسألة فلا يجيب منها في واحدة، وكان يقول: من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب»[167].

وقيل لأبي حنيفة: هذا الذي نفتي به هو الحق الذي لا شك فيه، فقال: «لا أدري لعله الباطل الذي لا شك فيه»[168].

لله دركم يا رجال الله، وطيَّب الله ثراكم، لمَّا كانت هذه أخلاقكم، ملكتم الدنيا وشغلتم الآفاق، وكما كنتم تدعون لشيوخكم في صلاتكم، فإننا ندعو لكم، وإن جار الزمان، وعقَّ الوِلدان.

165- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2003، ج: 4. ص: 179.

166- الموافقات، الشاطبي: ج: 4. ص: 179.

167- المرجع نفسه: ج: 4. ص: 180.

168- تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، ص: 358.

خامساً: التحلي بروح الأخوَّة والتسامح

لمَّا كان الحق مطلب الكل، فقد جمعهم طراً تحت رحمته في حالة الائتلاف والاختلاف، أما الائتلاف فبدهي الانسجام والوفاق، أما الاختلاف أيضاً فهو سبيل لطلب الحق، برؤى مختلفة، وكلٌّ مأجور. لقد تآخى علماؤنا مؤتلفين ومختلفين، لقد ائتلفوا في الله واختلفوا من أجله.

ينبغي ألا يعتقد من يقرأ هذه الآداب، أن العلماء كانوا على وفاق تام وأن بعضهم كان يجامل بعضاً على حساب الحق.

لقد كانت بينهم مناظرات ومساجلات في نصرة كل لما يرى أنه الحق، فقد تناظر مالك والشافعي[169]. رغم مكانة مالك في قلب الشافعي، وبعد المناظرة أجازه للفتوى، بل ردَّ الشافعي على مالك في كتاب كامل أسماه (كتاب الوضع على مالك)[170]، ولما بلغه أن بعض الأندلسيين يستسقون بقلنسوة الإمام مالك سارع باستنكار ذلك، والكتابة فيه. وقال: « إن مالكاً آدمي قد يخطئ ويغلط »[171]. ولم يمنعه حبه وتقديره لمحمد بن الحسن الذي أنقذه وآواه من أن يناظره ويشتد عليه في المناظرة[172] كما تناظر مع تلميذه أحمد بن حنبل حول قضية تارك الصلاة[173].

وقد كان القاضي عبد الجبار من أشد الناس تمسكاً بأصول الشافعي، ولكن لمَّا بدا له أنه أخطأ قال: الشافعي كبير، والحق أكبر منه[174]. كما تناظر مع إسحاق بن راهويه وغيرهم كثير، ورغم ذلك كان يعقب على ذلك بالكلام الجميل الذي مرَّ معنا في مناسبات سابقة. إن الحق أحق أن يتبع. كما تناظر أبو حنيفة ومالك، وتناظر

169- أدب العلم والمعلم والمتعلم، عبد الباسط بن موسى بن محمد العامري، مكتبة الثقافة الدينية، ط: 1، 2004، 233 - 234

170- المتفيهقون، د. حسن هيتو، ص: 112.

171- مناقب الإمام الشافعي، فخر الدين الرازي، ص: 49.

172- المرجع نفسه، ص 84 - 87. وينظر تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، ص: 442، وينظر تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، ص: 254

173- ينظر، أدب العلم والمعلم والمتعلم، عبد الباسط بن موسى بن محمد العامري، (981هـ) مكتبة الثقافة لدينية، ط: 1، 2004، ص: 333 -342.

174- المتفيهقون، د. محمد حسن هيتو، ص: 113.

الجبائي مع تلميذه أبي الحسن الأشعري.

لقد كان الحق هو هدف الكل ولهذا كانوا لا يجاملون بعضهم فيما يرونه صواباً لأنه دين بدءاً وانتهاءً. غير أن تلك المناظرات والمساجلات لم تزد علماءنا إلا تقرباً، ولم يزدد بها الفقه إلا ثراء وتنوعاً.

إنَّ هذا وذاك لم يقف حاجزاً أمام انديا‌ح الأخوة الصادقة، والتسامح الكريم، ورجال تلك صفاتهم وقع بينهم اختلاف من أجل الحق، ولم يدس الهوى أنفه في خلافٍ لا يدعو إليه غير الحق[175].

لقد كان الشافعي من أكبر المناظرين، ورغم ذلك كان يتمنى أن يظهر الله الحق على يد غيره، ولا يتمنى لصاحبه أن يخطئ، ولا يزداد مناظره في عينه إلا هيبة. قال يونس الصدقي: ما رأيت أعقل من الشافعي ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً، وإن لم نتفق في مسألة[176].

وتناظر أحمد وعلي المديني، حتى ارتفعت أصواتهما، ولما أراد علي المديني أن ينصرف، قام أحمد فأخذ بركابه!![177]. وعن صالح بن الإمام أحمد بن حنبل قال: «لقيني بن أبي معين فقال: أما يستحي أبوك مما يفعل، فقلت وما يفعل؟ قال رأيته مع الشافعي، والشافعي راكب، وهو راجلٌ، آخذ بزمام دابته، فقلت لأبي ذلك، فقال: إن لقيته فقل له يقول لك أبي إذا أردت أن تتفقه، فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر»[178]. وفي حلية الأولياء «دع عنك هذه فإن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة»[179]. لقد كان أدبهم مع أساتذتهم وشيوخهم غاية في الرقة والأخوة الحانية، إذ كانت لهم مناقب مأثورة تكاد تكون أسطورية لمثاليتها، وعمقها.

وهذه أمثلة منها على عجل وهي صورٌ ناطقة لا تحتاج إلى تعليق: صلى الشافعي -رحمه الله- الصبح قريباً من مقبرة أبي حنيفة -رحمه الله- ولم يقنت تأدباً

175- أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر العلواني، ص: 124.

176- منهج الجدل والمناظرة، عثمان علي الحسن، ج: 2، ص: 769 عن سير أعلام النبلاء، الذهبي 16/10.

177- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص: 434.

178- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج: 10، ص: 86.

179- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، ج: 9، ص: 99.

معه!![180].

يقول أبو حنيفة «ما مدت رجلي نحو دار أستاذي حماد، إجلالاً له، وكانت بين داري وداره سبع سكك، وما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي، وإني أستغفر لمن تعلمت منه أو علمني علماً»[181].

كان أحمد بن حنبل متكئاً لعذر مرضي، فلما ذكر عنده إبراهيم بن طهمان، استوى جالساً، وقال: لا ينبغي أن يذكر الصالحون فنتكئ[182]. قال الشافعي: «كنت أتصفح الورق بين يدي مالك برفق لئلا يسمع وقعها»[183]. وقال الربيع تلميذ الشافعي «والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر»[184]. وكان أحمد بن حنبل إذا تذكر محنة أبي حنيفة بكى وترحم عليه[185].

180- حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ج: 1، ص: 296. والأنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ص: 165.

181- ضوابط الاختلاف في ميزان السنة، محمد شعبان: 56-57.

182- المرجع نفسه،

183- المرجع نفسه، ص: 56.

184- المرجع نفسه، ص: 56.

185- المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، د. علي جمعة محمد، ص: 74. وعن أبي يوسف قال: إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبوي، ولقد سمعت أبا حنيفة يقول إني لأدعو لحماد مع والدي.